الصُّواع الحُجَّةُ والدَّليل والوَسيلة

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ ويوصيهم الشيخ النبي الكريم يعقوب بتوصية الرجل الحسيب العاقل، وكانوا أحد عشر ابنًا، وهنا لأهل العلم مواقف، لماذا يقول: ﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾؟ يقول: إذا دخلتم المدينة وكان في العاصمة أربعة أبواب لا تدخلوا من باب واحد، وقيل قصر الملك الذي هو يوسف.

وقال بعضهم: كالعباس ومجاهد: خوفًا من العين والله أعلم، يقول: خاف عليهم من العين لكثرتهم ولجمالهم.

فمن جمالهم ومن قوتهم واجتماعهم خاف عليهم إذا دخلوا أن يصابوا بالعين فيموتوا.

﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، والله لا أستطيع دفع العين، ولا دفع الموت، الحافظ والدافع والمعافي والمشافي هو الله عز وجل، إنما نحن نفعل الأسباب.

يقول لأبنائه: لا تدخلوا من باب واحد، ومع ذلك أتوكل على الله -سبحانه-، فإذا أصابتكم عين لا أحد غير الله يدفعها عنكم، قال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾، اسمع المنطق من القرآن، يوسف هناك

يرسل رسائل من التوحيد والنبوة والشريعة من الحبس والزنزانة، وكذلك يعقوب يرسل رسائل من التوكل وتفويض الأمر لله والاعتماد عليه فنعم الأب والابن، ونعم الوالد والولد، ويا لها من أسرة مباركة، هذا في مصر يوجه الشريعة، النبوة والملك لخدمة لا إله إلا الله، وذاك في أرض فلسطين يوجه طاقاته في خدمة المبدأ الحق، وهذا فعل الإنسان في هذه الحياة، ثم يقول: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾، أصل الأمر والنهي لله، والقضاء والقدر لله، وكل ما ينفذ في الدنيا لله، قال يعقوب -عليه السلام-: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾، لا إله إلا الله ما أصبره من نبي شيخ كبير، يبكي حتى تبيض عيناه من الحزن، ينوح ثم يقول: ﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ**﴾، واأسفاه على يوسف، ومع ذلك يقول: عليه توكلت، فهو مع الله يفوض أمره لله، يقول: أنا متوكل عليك في ذهاب يوسف، وفي ذهاب أخيه، وفي ذهابكم، ﴿**وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾، من أراد أن يفوض الأمر فليفوضه لله.

ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم، كل اثنين من باب واحد، وما كانت الوصية إلا لحاجة في نفس يعقوب، كان في نفسه حاجة، فوصى أبناءه، أراد يأخذ بالسبب - والله أعلم - إما خوف العين، أو غير ذلك، قال - سبحانه - يمدح يعقوب: ﴿**إنه لذو علم لما علمناه**﴾ فهذا النبي عُلِّمَ وأعطاه الله من العلم الذي عنده.

قال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، وإخوانه مفترقون، وقف هذا عند الكيال، وانفرد يوسف - عليه السلام- بأخيه، وقال له. هل تذكر يوسف الذي وضعوه في الجب، وقالوا أكله الذئب؟ هو أنا ملك الدنيا الآن، أنا نبي من عند الواحد الأحد، والذئاب لا تأكل الأنبياء، أنا أخوك لا تبتئس بفعلهم.

قال: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، أي: ضمه إليه، قال أنا أخوك من أمك أنت شقيقي، العشرة هم إخوانه من أم أخرى، ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، الله مدبر الأمور، الذي فعلوه بي وبأبي لن يضيع عند الله، فهذا تدبير من عند الله، فسوف يظهر لك من العواقب أن الله معنا -سبحانه- والعاقبة للمتقين، فلا تخف، ثم أَسَرَّ إليه أنه سيفعل شيئًا ما في نفسه ليبقيه عنده، حتى يَحْضُرَ أبوه ويلتم الشمل، وكل ذلك من تدبير الباري سبحانه، قال: توكلنا على الله، ومهما ظهر من شيء فسوف أتهمك أمام الملأ أنك سارق فسلم نفسك كأنك متهم، وأنا أجعلك في القصر، ثم يأتي الوالد ويجتمع الشمل.

قال: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾، ملأ الأكياس لهم من الحبوب، والله يقول: كدنا ليوسف، نحن علمناه كيف يحتال، وإلا يوسف لا يستطيع إلا بعلم الباري سبحانه وتعالى، يوسف لما جاء أهل الكيل الخدم والحشم قال: هذا الصواع، قيل: هذا المكيال الذي يكال به اللحم، وقيل: هذا إناء الشرب له من ذهب وهو غالٍ عنده، وعليه

سلاسل قال: اجعلوه في كيس أخي بنيامين، وضعوا عليه الحب، وإذا كشفناه نجد السقاية عنده ونأخذه منه، والصاع معه؛ ليكون لنا حجة، حتى أمسكه بالقصر، أما أن نحبسه دون سبب فلن يرضى إخوانه ولا الرأي العام. فلما انتهى وملأ الأكياس وجاؤوا إلى كيس أخيه ووضعوا الصواع فيه، ثم وضعوا الحب فوقه، ثم حملوا الجمال، وذهبت الجمال، جعل السقاية في رحل أخيه: يعني في كيس أخيه الذي سوف يرتحل إلى فلسطين، ثم ترك الجمال تمشي، انظروا إلى الذكاء والحيلة، غادرت القافلة العاصمة محملة بالبر وأحد عشر جميلاً يركبون الجمال، ولما خرجوا من المدينة أرسل يوسف بعدهم صائح يصيح من القصر ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

صاح صائح من جهة الملك الذي هو يوسف -عليه السلام- ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، الآن سرقتم صواع الملك الذي هو من ذهب، من يتجرأ ويسرق صواع الملك، ما كافأكم بالضيافة حتى تسرقوا الصواع، الآن أقبلوا؛ صاحوا كلهم، لكن أخاه الحادي عشر، قال له: لا تصح ولا تكشفنا دع الأمور كما نريد، فرجعوا فقابلوا رسول يوسف وأتى الناس فحبسوا القافلة وأقبلوا ينظرون ببراءة ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ الكأس الكبير، إما للأكل أو الكيل، ولمن جاء به حمل بعير، وهنا زيادة حتى يقبضوا عليه، وأنهم يريدون هذا الصواع، وأنه لا حيلة، وليست هناك مكيدة، الذي يأتينا به له حمل بعير من بُرٍّ، الجمل يحمل الكثير من البُرِّ والوقت وقت مجاعة، قالوا: نعطيه مجانًا،

وقال الصائح: أنا أكفلكم عند الملك، أهم شيء أن تردوا الصواع، ومن رد الصواع له حمل بعير من البر، وأحسن فينا، وأحسن في نفسه.

﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ**﴾ على لسانهم، فهم متيقنون وجازمون أن الصواع ليس عندهم، فقالوا: تالله، هذا من الأسلوب العظيم، ﴿**قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ**﴾، والله ما جئنا نخرب ولا نريد أن نسرق، وليس في تاريخنا السرقة، وهذا حالهم هم أبناء نبي لكن الله أراد أن يحتال ليوسف -عليه السلام-، ليتم السر الذي من أجله نصر الله يعقوب وجعل -سبحانه- هذه العجائب، وهذه المعجزات؛ ليتم علمه سبحانه وتعالى، وانظر إلى عدم العجلة في القبض عليهم، أو في أخذ أخيهم وهذا من الحيلة، قالوا الذين من جهة الملك: ﴿**فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ**﴾؟ أنتم قلتم لا نسرق، وحلفتم أنكم ما كنتم تفسدون، لكن إن حصل أن أحدكم أخذ الصواع وسرقة، وإنكم كذبتم، فلن نجعل الحكم للملك، أنتم احكموا، سبحان الله- جعل الحكم في ألسنتهم؛ لأن السارق يغرم ويعذر لكن ما يحبس، فالآن هم يقولون: يحبس حتى يأتي الحُكم لصالح يوسف عليه السلام، قالوا: ﴿ **فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ**﴾ رأس برأس إن وجدتم أحدًا منا سرق الصواع فخذوه مكانه هكذا، كذلك نجزي الظالمين. فهم متأكدون أنهم لم يأخذوا الصواع، وأنهم على طهر، لكن أراد الله أن ينطقها بألسنتهم؛ لأن الله إذا كان معك أجرى لك الحيل، وفتح لك الأبواب، ونسق لك

الأمور، لكن إذا كان الله ضدك تعمى عليك الدنيا، وتضيق عليك فكن مع الواحد يكن معك، قالوا: ﴿**كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾، بدأ الحرس والخدم بتفتيش الجمال، ومن نوادر الذكاء أن يوسف - عليه السلام- لم يبدأ ببعير أخيه حتى لا يَشكُّون، إنما بدأ بجمالهم أولاً، بدأ بالأول، فقالوا: بريء، ثم بدؤوا بالثاني بريء، الثالث الرابع الخامس، حتى وصلوا إلى العاشر، قالوا: بقي الأخير، وفتشوه فوجدوا عنده الصواع، قالوا: ما شاء الله تأخذون الحب وتسرقون الملك، ما كافأتم الإكرام، فطارت عقولهم واندهشوا، ثم قال: ﴿**فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ**﴾، يقول: ما كان في سلطان الملك وشريعة يوسف أن السارق يعزر الآن، جاؤوا بالحبس فتطابق الأمر، الله جعله حيلة حتى يمسك بأخيه، قالوا: نأخذه قال -سبحانه- ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ**﴾، رفعنا يوسف، وفوق كل ذي علم عليم، يعلم الجميع الواحد الأحد علاّم الغيوب، قالوا أمام العزيز يوسف عليه السلام: ﴿**قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ**﴾ ما شاء الله، الذي سرق هو ملك، النبي المعصوم المظلوم المضطهد الذي شرد من أهله، الذي يبكي عليه أبوه أكثر من عشرين سنة حتى ذهب بصره، هذا هو يسرق، يقولون: أنت مثل أخيك الذي من أمك، أنت الذي فعلت هذا الأمر، وسببت تأخرنا، وغَضَبَ الملك علينا، يقولون ذلك تشفيًا، فما زال الحنين إلى العداء السابق والحسد في قلوبهم، قالوا له: أنت مثل أخيك، ويُروى: والله

أعلم أنه رأى عمَّة من عَمَّاته تصلي إلى صنم، فغصب منها، وأخذ الصنم وأخفاه وهو طفل على التوحيد، فاكتشفته عمته، وقالت: سرق صنمي. فقالوا: أنت مثل اللي سرق صنم عمتنا، ﴿ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ**﴾، السب موجه له لم يدروا أن الواقف أمامهم هو يوسف -عليه السلام- ومن الحكمة أن يوسف -عليه السلام- كتم غيظه ولم يتكلم. ﴿**فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ**﴾: وهذا من الذكاء والدهاء والحكمة، ألا تستفزك المواقف المغضبة فتُخْرِج من نفسك كلامًا ليس فيه مصلحة، فلو قال شيئًا عن ذلك، أو ردَّ عليهم قولهم وخاصمهم وقال: والله ما صدقتم أنتم الذين فعلتم كذا وكذا لوضحت المسألة، وبطلت الحيلة ليتوصل إلى شيء ما، والله هو الذي علمه به، والعاقبة الحميدة التي أرادها، فالصواب أن يسكت ويتأنى قليلاً ولا يبدي لهم آثار هذه الكلمة، وأن يتمهل -عليه السلام- حتى يصل السر إلى منتهاه، أخفاه في نفسه، ﴿**وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ**﴾، أي: يعقب عليهم؛ لأنهم اتهموا أخاه، واتهموا يوسف بالسرقة، ﴿**قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا**﴾ والله يظهر عليكم أنكم الأشرار، وهو خير منكم، كأن الملك عنده فطنة ويعرف الماضي، سبحان الله عنده من الذكاء الشيء الكثير، فوضع كلمة دامغة ساحقة حتى يتشفى من هذا الباطل، كيف تتهمون أنه سرق وهو لم يسرق أصلاً، وتتهمون أخاكم يوسف أنه سرق وعمره ما سرق -عليه السلام- يقول: حالكم والظاهر عليكم أن الذنب فيكم أنتم، ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ**﴾، الله أعلم بما تدبرون، الله أعلم بما جئتم به، ويشير إلى أشياء في

تاريخهم حتى يصيرهم هذا التدبير من الله، قال لهم: اذهبوا أخذنا السارق بسرقته والجاني بجنايته، وأنتم الذين حكمتم أننا نأخذه، ذهب وأخذه بيده أمام الناس وعاتبه بقوله: تأخذ صواع الملك ونحن أكرمناكم، فلما اختفى في القصر، قال: أهلاً وسهلاً لقد أصبحت معي، وهم سيذهبون، وسوف يعودون إلينا وتتم المسألة، وسنخبرهم بما حصل منهم، ثم بعد ذلك يكشف الستار عما فعلوه، وتكون العاقبة لنا ولأبينا، والعاقبة للمتقين، يعقوب -عليه السلام- عندما ذهب يوسف، قال واأسفاه على يوسف، ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾.

قال: ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾، أي: استيأسوا من أخيهم، خرجوا إلى الصحراء وأخذوا يتناجون فيما بينهم، وذهبوا بعيدًا عن اجتماع الناس، وقالوا: ما الحيلة الآن، بَلَيْنَا أبانا في أخينا يوسف، وبقي أكثر من عشرين سنة، والآن أتينا بأخينا بنيامين وفعل ما فعل وبقي في مصر، وقد أخذ علينا موثقًا من الله أن نأتي بابنه، والآن ماذا نفعل، وحاروا في أمرهم وأصبحوا والله في حال عجيب، وانظر إلى الإحراج والهم والغم والحزن غفر الله لهم بما فعلوا وخططوا حتى وصلوا إلى هذا الحال، إن رجعوا إلى الملك لن يقبل، ولن يسلم أخاهم، وإن رجعوا إلى أبيهم، قال: أين الموثق، أما كبيرهم، فقال لن أبرح الأرض، والله لن أغادر مصر، والله إني في هَمٍّ لا يعلمه إلا الله، ضيعنا يوسف من قبل، وأتينا الآن نضيع أخانا الثاني، وأبونا شيخ ذهب بصره يبكي على يوسف،

كيف نقابل أبانا وقد أخذ علينا موثقًا من الله، الذي مواثيقه -سبحانه- لو نزلت على الجبال لدكتها، ماذا أفعل، والله لن أخرج من مصر، اتركوني في الأرض، وجلس في مكانه يبكي، فالموقف مرعب، كيف يقابل يعقوب -عليه السلام- أبكيناه في يوسف منذ عشرين سنة، والآن أخانا الحادي عشر تركناه في مصر، أين المواثيق؟ جلس كبيرهم يبكى، وأقدامه لا تحمله، قال: ﴿**ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ**﴾، والله هذا قضاء وقدر هو ما سرق أصلاً لكن هذه لبِّست عليه من مكائد الشريعة الإلهية لصالح يوسف -عليه السلام-. جلس الكبير وقال: لا أستطيع أن أذهب، أما أنتم فاذهبوا وقولوا: ابنك سرق، يوصيهم الكبير، ابنك هو الذي سرق وما شهدنا إلا بما علمنا، والله لا توجد حيلة، فهو مظلوم بتهمة أخذ صواع الملك، لم يدركوا ما المسألة أصلاً، ما كنا ندري أن ابنك يفعل بنا كذا، وأنت أخذت الموثق وما شهدنا إلا بما عملنا، يقول هذا الذي ظهر لنا أنه سارق، وأما الغيب فعند الله -عز وجل- لم يدرِ بسرائر الأمور، كان ابنك معنا ولما انتهينا أخذ الصواع ووضعه في كيسه وسرق، ﴿**وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ**﴾، نحن نحفظ ابنك في علانيته فقط، أما السَّر فلا نستطيع، نحن شهدنا على القضية التي رأيناها، ورأينا الملك أخذ ابنك بالسرقة، ونحن حكمنا عليه أن يأخذه.

وقالوا: إن كنت غير مصدق لنا فاسأل العير التي قدمنا بها، ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾، العير يعني: قافلة، أتوا مسافرين من فلسطين كلهم يكتال من

القحط، ويأخذ الحبوب لأهله، القضية هزت الرأي العام، إن صواع الملك سرق في قصره، هذا ابنك سرق من القصر الملكي في مصر، وصارت قضية تكلموا عنها الناس وانتشر خبرها، يا أبانا نحن لم نحتل على أخينا، نحن ثقات، يوسف أكله الذئب، وبنيامين سرق هذا معنى الكلام يعني: صدقنا مثل ما صدقتنا، قالوا: وإن لم تصدقنا فاسأل العير التي أقبلنا فيها، والقرية التي كنا فيها؛ لأن مصر التي كنا فيها علمت بالأخبار، وإنا لصادقون.